مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد الخامس

1988م.

- المعارف اللازمة للداعية
- المحاولات الإستعمارية لتقويض الإسلام في الجزائر
- منهج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في إصلاح التعليم الإسلامي
- الفكر التربوي بين الأصالة والتغريب
- جامعة الزهراء جامعة علمية يخسرها العالم الإسلامي

الأدب العربي

بين التأثير والتأثر خلال العصر العباسي

الدكتور
أحمد سالم الزيب

التقت شتى الثقافات القديمة منها والحديثة في المدن الإسلامية لهذا العصر وهي تمثل أعرق الحضارات الشرقية من يونانية وهندية وفارسية وغيرها، فكانت ثقافة هذا المجتمع الإسلامي الجديد مزيجاً من ثقافات شعوب عدة حتى ازدهرت الحياة العقلية والثقافية ازدهاراً منقطع النظير، وقد ساعد على ذلك موقف بعض خلفاء بني العباس من تلك الثقافات الأممية القديمة حيث عمدوا إلى تشجيع العلماء وتمكينهم من نقل الكتب وترجمتها إلى اللغة العربية ـ

لغة الدولة والعقيدة ـ فقد ترجموا المصنفات العلمية في جميع فروع المعرفة مثل كتب الطب والفلسفة والمنطق، والفلك والكيمياء وغيرها وعرف هذا العمل الجليل بصورة مصغرة في عهد بني أمية حيث ترجمت بعض الكتب «لخالد بن يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم»[1] وزادت العناية بها في عصر ثاني خليفة عباسي أبي جعفر المنصور المتوفي سنة 158 هـ فقد عني هذا الخليفة بترجمة الكتب ونقلها إلى العربية مثل كتب الطب والفلسفة والطبيعيات، وخاطب ملوك الدولة الرومانية الشرقية بأن يبعثوا إليه بكتب التعاليم. فبعثوا بها إليه كما يقول ابن خلدون في مقدمته[2]، واختار لهذا العمل مهرة المترجمين من العلماء والأدباء كعبد الله بن المقفع الكاتب الفارسي الشهير كاتب المنصور يومها، الذي ترجم أرسطوطاليس من السريانية إلى العربية مثل كتاب: «القياس» وكتاب «العبارة» أو القضايا التصريفية وكتاب «المقولات» وجميعها في المنطق.

ومن المترجمين كذلك محمد بن ابراهيم الفزاري الذي ترجم كتاب «السند هند» في حركة النجوم، وهو كتاب هندي الأصل، كان يعمل به إلى عصر المأمون[3] ونرى هارون الرشيد يفعل مثل هذا الفعل في نقل تلك المعارف إلى اللغة العربية، وينشيء لها بيت الحكمة حتى إذا جئنا إلى عصر المأمون وجدنا أن حركة النقل والترجمة قد بلغت الغاية في جميع العلوم وتطورت بسبب التنظيم والتفسير والشرح لما غمض منها، «وقد أجريت على هؤلاء العلماء رواتب شهرية بلغت خمسمائة دينار»[4] في بعض الأحيان كما أدخل تطويراً على «دار الحكمة» بحيث صارت تخرج المتخصصين في هذا الفن على أسس علمية[5]، وتعد العراق البيئة الأولى التي قام على أرضها هذا النشاط العلمي المزدهر، وذلك لعدة أسباب فبين الفراتين عدة حضارات وثقافات قديمة متعاقبة، وأن اللغة العربية والسريانية كانتا لغة سكان هذا الأقليم وهما أختان في الأصل السامي، وبينهما من الوشائج والصلات ما سهل على العربي أن يفهم ما يريده السرياني وبالعكس

(1) الفهرست لابن النديم ص 338/ط. دار المعرفة بيروت.

(2) ص 480.

(3) ضحى الإسلام جـ 1 ص 270.

(4) الفهرست ص 384.

(5) الفهرست ص 339.

فهما أشبه بلهجتين في لغة واحدة، وهذا من أقوى العوامل في سرعة التحول الذي طرأ على لسان وثقافة هذا الأقليم حيث صارت اللغة العربية لغة الأدب والثقافة والعلم، ومنها استراتيجية العراق إذ تقع على قرب من مصادر تلك الثقافات كذلك، ومن هنا كان العراق أول الأقاليم التي انطلقت منها تلك الحركة العلمية والأدبية والثقافية قبل الشام والحجاز وغيرها؛ ففيه جمعت لغة العرب ولهجاتهم وأدبهم، ونشأت العلوم: كعلم النحو والعروض والتفسير، وعلم الرواية، وظهرت مذاهب المتكلمين، وغير ذلك، وقد أسهم الفرس في فضيلة هذا السبق حيث أقبلوا على تعلم العربية حتى اتقنوها، وصارت وسيلتهم للتعبير عن أفكارهم وعواطفهم، وكان منهم فيها العلماء والأدباء والشعراء مثل أبي حنيفة وأتباعه في الشريعة، وسيبويه في النحو، وابن المقفع في صناعة الأدب، وبشار وأبي نواس في الشعر.

روافد الأدب العربي:

اليونانية:

انتشرت الحضارة اليونانية وتغلغلت ثقافتها في أواسط آسيا وشمال العراق وفي أفريقيا الشمالية أيضاً، وذلك على أثر الحملة التي قام بها الاسكندر المقدوني على بلدان الشرق أبان القرن الرابع قبل الميلاد، حيث حاول الربط بين المشرق والمغرب وجعلهما تحت نظم سياسية واحدة، وقد ظهر أثر ذلك في الأقاليم التي كانت تتكلم بالرومية مثل جنديسابور، وحران، والإسكندرية، حيث اشتهرت الثانية بالطب والأخيرة بتحفها ومكتبتها[6] العظيمة، وهذا على الرغم من أن الاسكندر - كما جاء في بعض الروايات التاريخية - قام بحرق وإتلاف ما حوته تلك المكتبة من كتب ذهاباً منه إلى تجريد الشرق الأدنى من عوامل القوة والنهضة والحضارة، والمقاومة[7]، والذي لا ريب فيه أن منطق علماء اليونان وفلسفتهم قد استفاد منهما علماء الإسلام فائدة كبيرة فبطرق البحث وتنظيم الأدلة وترتيب النتائج والأفكار بعد تطويرهما في رحاب اللغة العربية وأساليبها، وقد تجلى ذلك في

(6) المرجع السابق ص 334.

(7) تاريخ الشعر ص 234 لنجيب البهبيتي.

مدارس المتكلمين وأهل الرأي من المعتزلة وغيرهم، وهناك من يرى ـ كجويدي في محاضراته ـ أن النحو العربي أخذ بعض قوانينه ومصطلحاته، وتنظيم موضوعاته من النحو اليوناني، مثل ما كان لبلاغة اليونان أثر في تأسيس أصول بلاغة العرب في المنهج وطرق البحث والتصنيف والواقع أن النحو وكذلك البلاغة عربيان أصيلان من حيث المادة والقواعد وطرق الصياغة.

أما أثر اليونان في الأدب العربي فقد يختلف نوعاً ما عن أثرهم في الفكر العلمي كما سبق، فرسائل أرسطوطاليس إلى الاسكندر في شؤون السياسة والحكم التي نقلها إلى العربية[8] سالم كاتب هشام بن عبد الملك، تعد نمطاً من الأدب الرفيع تجلى أثرها في كتابات سالم هذا، وعبد الحميد الكاتب وابن المقفع وغيرهم، ولعل كتاب «فن الشعر» لأرسطو أيضاً هو الآخر الذي نال اهتمام الأدباء والشعراء حيث قام بترجمته من السريانية إلى العربية أبو بشر متى، وعدي بن يحيى[9]، ذلك لما تضمنه من أحكام عمل الشعر وصناعته، ومن محسنات الأسلوب واختيار صور البيان وتنظيم الفكر الأدبي إلى غير ذلك، وهي أمور تتعلق بالشكل في الأغلب، أفاد منها الأدباء والبلغاء والشعراء، ولكتابه «فن الخطابة» مثل ذلك الأثر.

يقول مؤلف كتاب تاريخ الشعر: فعلى ضوء النظرات المنظمة في كتاب «الشعر» لأرسطو إلى مجملات الأسلوب فحصت جميع الأشعار القديمة، واستخلصت منها جميع المحسنات في الأساليب، وفي المعاني والألفاظ، وفي الصور، ووضعت بين يدي الشعراء فأخذوا يقلدونها[10].

هذا من حيث الشكل أما المضمون الشعري من أدب اليونان فلم يكن له حظ في النقل والترجمة إلى العربية يذكر، الأوديسة والإلياذة لهوميروس في شعر الملاحم والقصص والتمثيل لم ينقل منه شيء في ذلك العصر، ولعل سبب ذلك يرجع إلى الأمور التالية: إن هذه الأشعار تتضمن عقائد اليونان وأوصاف آلهتهم المتعددة، ومقدساتهم الدينية، ونقلها يضرُّ بعقائد المسلمين، وأنه يمثل صورة لبيئة

(8) ابن النديم ـ الفهرست ص 171.

(9) أخبار الحكماء للقفطي ص 148.

(10) نجيب البهبيتي ط. دار الفكر ص 245.

تختلف تماماً عن البيئة العربية وطبيعتها. وأن الأشعار تفقد قيمتها الأدبية والفنية بالترجمة والنقل، وأن الشعر العربي قد بلغ في هذه الفترة ـ فترة الترجمة ـ من النضوج والكمال غاية جعلت الشاعر العربي نفسه يرضى عنه ويعتز به، ويفخر بتلك الصورة البيانية المعبرة عن الواقع في صدق وإيجاز طبيعيين، ومن هنا لم تكن بهم حاجة إلى ترجمة شعر الملاحم والتمثيل وغيرهما مما يمثل ما كان بين الآلهة اليونانية من الصراع الديني في زعمهم، من جانب، ولمناقضته لكل الحقائق الأدبية التي حرص عليها ذلك الشاعر العربي طول حياته فيما نظمه من الشعر من جانب آخر، فالإسراف في التخييل، والإيغال في الإيهام من الأمور التي يعتمد عليها مثل هذا النمط من شعر اليونان. ومما سبق يتضح أن المراد من الشعر عند العرب الصورة الحقيقية للأشياء، وفي إيجاز، والمراد من الشعر عند اليونان الإفراط في التخييل، والإسراف في الإيحاء وطول الحوار والمحاكاة، وهي أمور حملت هوميروس نفسه على الإسراف في الإسهاب حتى بلغت قصيدته «الإلياذة سبعاً وثلاثين وخمسمائة عشر ألف بيت من الشعر في أربعة وعشرين نشيداً، في حين بلغت الأوذيسة اثني عشر ألف بيت[11]». إذاً فالإيجاز في الشعر العربي أمر لازم لا محيد عنه عند شعرائه، ثم أين إسراف هوميروس شاعر اليونان من قول البحتري شاعر العرب؟!:

كلفتمونا حدود منطقكم ... في الشعر يُلْغَى عن صدقه كذبه
ولم يكن «ذو القروح» يلهج بالـ ... ـمنطق ما نوعه وما سببه؟
والشعر لمح تكفي إشارته ... وليس بالهذر طولت خطبه[12]

فاللمحة الدالة والإشارة المفهمة تكفيان في الشعر العربي عند البحتري، أما الإسراف والتطويل فهما هذر وخروج عن قانونه، وذلك من شأن الخطب وشعر اليونان، وربما كان شعر ابن الرومي يمثل صورة مصغرة من صور الشعر اليوناني، وشعر المتنبي يمثل شعر العرب في صورته المطلوبة، يقول صاحب الوساطة: وقد نجد كثيراً من أصحابك ينتحل تفضيل ابن الرومي، ويغلو في تقديمه، ونحن نستقرىء القصيدة من شعره، وهي تناهز المائة أو تربو أو تضعف

(11) النقد الأدبي عند اليونان بدوي طبانة ص
(12) جـ 1 ص 209 ديوان البحتري. تحقيقه الصرفي.

فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذي يروق، أو البيتين، ثم قد تنسلخ قصائد منه، وهي واقفة تحت ظلها جارية على رسلها لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي، وانتظار الفراغ» ثم يقول في هذه الموازنة بينهما: وأنت لا تجد لأبي الطيب قصيدة تخلو من أبيات تختار ومعان تستفاد وألفاظ تروق وتعذب، وإبداع على الفطنة والذكاء، وتصرف لا يصدر إلا عن عزارة واقتدار[13].

من خلال هذا العرض الموجز لجهود علماء وأدباء اللغة العربية في إحياء القديم من ثقافة اليونان يتبين للقارىء أصالة هذه اللغة وقوتها ومرونتها حيث انتشلت تلك الثقافة من هوة الضياع، ومنحتها حياة من جديد بعد نقلها إلى رحاب اللغة العربية وتطويرها وشرح غامضها وتفسير مبهمها والإضافة إليها بما يجعلها قادرة على البقاء حيث صيغت بأساليب عربية سهلة ميسرة واضحة قربت مفهومها من الدارسين وربطتها بالمستقبل وعبرت عنها حدود الأجيال والعصور والأقاليم، فإن كان هناك فضل فإنما هو اللغة العربية وآدابها التي احتضنت ذلك التراث اليوناني وأشرفت على تربيته وصقله وجعلته صالحاً للحياة.

وبنفس المنهج والأسلوب كان تعامل اللغة العربية مع كتب الثقافة الفارسية، وهي تراث ضخم كان خلاصة عدة ثقافات سابقة في الأداب والعلوم والفنون، وقد نهض لترجمتها إلى اللسان العربي طائفة ممن أتقنوا العربية وأختها السريانية ثم الفارسية من الجنسين العربي والفارسي حيث تم الامتزاج بين العرب والفرس في ظل العقيدة الإسلامية السمحة، ويأتي في طليعة هؤلاء المترجمين عبد الله بن المقفع، وبعض أبناء نوبخت، والحسن بن سهل، وجبلة بن سالم، وداذويه الأصفهاني، وسواهم وإلى جانب ما شهدته علوم الأمة الفارسية من نشاط في مجال الترجمة والنقل إلى رحاب أساليب البيان العربي الأصيل، كانت هناك أسباب ساعدت على انتشار معارفهم وآدابهم داخل المجتمع العربي في العصر العباسي، منها عدم تعصب خلفاء بني العباس الذين اتخذوا كتاب فارسيين لدواوين الخلافة، وقد فرضت عليهم تلك المناصب الكتابية الإلمام باللغة العربية وآدابها وأساليبها فضلاً عما كانوا عليه من العلم بمبادىء ثقافتهم التي امتزجت بالثقافة العربية وانتقلت عن طريقها إلى الأوساط العلمية والأدبية،

(13) القاضي الجرجاني. ص 54 ط الحلبي.

والاجتماعية، هذا العمل صنع منهم كتاباً بارزين ورؤساء أقلام تمثلت فيهم القدرة على صياغة الأساليب العربية الفصيحة، وكتابة الرسائل البليغة في ذلك العصر، ولو عدنا إلى تاريخ الدولة الأموية لوجدنا أشهر الكتاب فيها من الفرس فمثلاً سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه، وعبد الحميد الكاتب من أشهر الكتاب وأبلغهم وهما فارسيان، أما الخلافة العباسية فقد قامت على سيوف وأقلام الفرس، والقارىء لا بد أن يعرف الدور الخطير الذي قام به أبو مسلم الخراساني في قيام هذه الدولة ومناصرتها على بني مروان، كما لا بد أن يعرف كذلك دور مشاهير الكتاب منهم من أمثال البرامكة وآل نوبخت وأسرة سهل، وعبد الله بن المقفع ممن كانت تتكون منهم طبقة كبار الكتاب وأعوانهم في أمور الخلافة، وكان لهذه الطبقة من الكتاب أثر بارز في سرعة انتشار الثقافة العلمية والأدبية، بل وفي أساليب البلاغة والبيان وتطويرهما، ذلك لأن ثقافتهم ودائرة معارفهم، وكثرة إطلاعهم كانت أكثر اتساعاً. وأشمل من سواهم، وهو ما تفرضه عليهم طبيعة عملهم الفني، فلن يصل الواحد منهم إلى هذا المنصب إلا إذا كان ملماً بأكثر فروع المعرفة لعصره، وهو الأمر الذي جعل عبد الحميد الكاتب يؤلف رسالة في هذا الخصوص يحث فيها على الإلمام بأهم أصول ثقافة العصر ومكوناتها، فيقول: فتنافسوا معشر الكتاب في صنوف العلم والأدب، وتفقهوا في الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل، والفرائض، ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، واروا الأشعار، واعرفوا غريبها، ومعانيها وأيام العرب والعجم، وأحاديثها، وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم،ولا يضعفنّ نظركم في الحساب، فإنه قوام كتاب الخراج منكم»[14].

وقد استجاب أدباء ذلك العصر في رسالة عبد الحميد، كما استجاب لها الخلفاء كذلك، فهذا هارون الرشيد يقول لمعلم ولده الكسائي: يا علي بن حمزة قد حللناك المحل الذي لم تكن تبلغه همتك، فدونا من الأشعار أعفها، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق وذاكرنا بآداب الفرس والهند»[15].

ومن هذا المنطلق اتجه كبار الكتاب إلى التأليف في أحكام الكتابة وأدواتها

(14) صبح الأعشى جـ1 ص85 وما بعدها/ للقلقشندي.

(15) معجم الأدباء جـ13/165 لياقوت.

وفنونها، وموادها، فألف ابن قتيبة كتابه «أدب الكاتب» وألف الصولي «أدب الكتاب» كما صنف أبو هلال العسكري «كتاب الصناعتين» وابن درستويه «الكتاب» وابن الأثير «المثل السائر» ثم «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» للقلقشندي. وإلى جانب هذه الكتب كانت هناك كتب مترجمة من اللغة العربية ومن أشهر المترجمين في ذلك العصر عبد الله بن المقفع الذي قام بترجمته كتاب «تاريخ ملوك الفرس» ألف في تاريخ نشأة الدولة الفارسية حتى آخر ملك فيها. وقد ذكره الطبري ونقل عنه في كتابه «تاريخ الأمم والملوك..» عند حديثه عن الساسانيين» وترجم كتاب «النظم والشرائع والعادات» وقد وصف المسعودي في تاريخه «مروج الذهب»[16] هذا الكتاب بأنه كبير يقع في آلاف الصفحات، كما ترجم كتاب «كليلة ودمنة» من اللغة السريانية إلى العربية، وهذا الكتاب من أصل هندي، وألف كتابيه «الأدب الصغير» و«الأدب الكبير» وكتاب «اليتيمة» وكتاب «الألف خرافة» ويعد أحد أصول كتاب «ألف ليلة وليلة» و«الدب والثعلب» وكتاب «أردشير في التدبير» و«أدب الحرب» و«توقيعات كسرى» ومن المعروف أن أكثر هذه الكتب لم يصل إلينا حتى الآن، ويغلب على الظن أن حرق التتار الكتب أو إلقاءها في نهري دجلة والفرات قد أتى عليها كما أتى على غيرها، مما حرم الإنسانية من ذلك التراث العظيم والانتفاع به.

أما الثقافة الهندية فقد كان التقاؤها بالأدب العربي ولغته قديماً يرجع إلى العصر الجاهلي حيث تذكر كتب المعرّب من الكلام الأعجمي أن ألفاظاً هندية كثيرة من أسماء البقول والنباتات والحيوان، وأدوات الزينة وغيرها، قد عربت وأدخلت ضمن ألفاظ اللغة العربية، وأن ذلك كان منذ أن اتصل العرب بالهند تجارياً، لشراء مختلف السلع ونقلها إلى بلادهم، فكان عليهم أن يتعلموا على الأقل أسماء ما ينقلون من المبيعات الهندية تلك، كما أولع العرب بسيوف الهند، فقالوا: سيف هندي، ومهند، وهندواني، وامتدح ذلك السيف كثير من الشعراء العرب، وشبهوا به في أشعارهم من ذلك قول كعب بن زهير في قصيدته المشهورة «بانت سعاد» يمتدح الرسول ﷺ:

---

(16) ص ٣٧١ جـ 1.

إن الـرسـول لسيف يستضـاء بـه مهنـد من سيـوف الله مـسلول[17]

ومن بعض الروايات «من سيوف الهند» فقال له الرسول: قل: من سيوف الله. كما سموا الكثيرات من بناتهم باسم «هند» وكني عمر بن المنذر بأبي هند، وخاطبه عمرو بن كلثوم في معلقته «ألاهبي» بذلك فقال:

أبـا هنـد فـلا تعجـل علينـا وأنـظرنـا نـخـبرك اليـقيـنـا[18]

كما تبع ذلك بعض أقوال وآراء الهنود في البلاغة والأدب عندهم، نقلت إلى البلاغة والأدب العربيين، من ذلك ما نقله الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» حين كان يتحدث عن البلاغة عند الأمم الأخرى ـ الفرس ـ واليونان ـ والهند ـ ولما ذكر الهند قال: قال معمر أبو الأشعث: قلت لبهلة الهندي أيام اجتلب يحيى بن خالد البرمكي أطباء الهند: ما البلاغة عند الهند؟ فقال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة ولكن لا أحسن ترجمتها لك، ولم أعالج هذه الصناعة، فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها.

قال أبو الأشعث: فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ـ ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون من قواه فضل التصرف في كل طبقة...»[19] وهو ما يعرف في البلاغة العربية بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، كما يدخل تحته أضرب الخبر وغير ذلك، والواقع أن البيان العربي بصفة عامة قد استفاد مما في هذه الصحيفة وغيرها فائدة جليلة ظهر أثرها في مدارس المتكلمين وعلى ألسنة المتناظرين، والخطباء، والكتاب، والمؤلفين في علوم البلاغة[20].

الشعر: أما الشعر فقد كان للهنود ولع به شديد حتى إنهم نظموا أغلب علومهم ومعارفهم كعلوم الرياضة والفلك والتاريخ والحروب وغيرها كما في

(17) ديوان كعب بن زهير ص 23 صنعه أبي سعيد السكري.

(18) القصائد السبع الطوال ص 387 شرح الأنباري.

(19) ص 92 جـ 1/ تحقيق عبد السلام هارون.

(20) ينظر في ذلك كتاب الصناعتين للعسكري ص 19 وما بعدها ـ وعيون الأخبار ص 173 جـ 2 لابن قتيبة.

«الشاهنامة» مما جعلهم يخرجون أحياناً عن ضبط القواعد وتحريف المصطلحات العلمية لما تتطلبه من دقة في العبارة، وتحديد في المدلول اللغوي قد لا يتأتى في حال للنظم إلا بشيء من التجوز وتخطي تلك الحدود، وقد ذكر البيروني أن الهنود لشدة اهتمامهم بالشعر وضعوا له بحوراً وأوزاناً ضبطوه بها، وقد تناولها بالشرح والبيان ثم عقب على ذلك بقوله: ومن الممكن أن يكون الخليل بن أحمد سمع أن للهند موازين في الأشعار كما ظن بعض الناس»[21].

ولا أشك في أن الخليل بن أحمد لم ينتفع بضوابط وبحور الشعر الهندي عندما كان يقوم بوضع علم العروض للشعر العربي، وهذا إذا سلمنا أنه سمع بها، لأن أغلب الروايات توثق ابتكاره لهذا الفن.

والملاحظ أن نظم الهنود لقواعد بعض العلوم من رياضيات وغيرها، كان له أثر واضح في شعراء العربية. مما دفعهم إلى تقليد شعراء الهند في هذا الاتجاه، نحو نظم تعليمي مدرسي، حيث نجد أبان بن عبد الحميد اللاحقي، من شعراء البرامكة المقربين، قد عمد إلى بعض الكتب فنظمها، كما نظم قواعد بعض العلوم في الفلك، والشريعة وغيرهما وجعلها في منظومات شعرية امتازت بأدبية العبارة وسهولة الأسلوب، وقد قصد من وراء هذا العمل تسهيل حفظها واستظهارها على الناشئة، والمتعلمين. وإذا عرفنا أن أبانَ هذا كان يعمل مؤدباً لأبناء البرامكة اتضح لنا السبب الحقيقي من وراء هذا القصد في منظوماته، ومنذ ذلك التاريخ صارت المنظومات التعليمية عملاً مشروعاً سلكه كثير من المعلمين والمؤدبين ومما نظمه أبان كتاب «كليلة ودمنة»[22] وهو كتاب هندي الأصل نظمه للمتأدبين على يديه من أبناء البرامكة وغيرهم، ليسهل عليهم حفظه، وتناقله، وقد كانت جائزة هذا العمل عظيمة من قبل البرامكة أنفسهم لأبان، حيث أعطاه يحيى بن خالد البرمكي عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف، وقال له جعفر يكفيك أن أحفظه فأكون راويتك[23]، وقد ذكر الصولي في كتابه «الأوراق» قطعة طيبة من هذا الشعر بلغ عدد أبياتها ستة وسبعين بيتاً، وأظهر

(21) تحقيق ما للهند من مقولة مرذولة في العقل أو مقبولة ص 276.

(22) نظمه في ثلاثة أشهر من أربعة عشر بيتاً الأوراق للصولي ص 1.

(23) المصدر السابق ص 2.

استحسانه إياها فقال: «إن كل كلام نقل إلى شعر فالكلام أفصح منه إلا كتاب كليلة ودمنة[24] ومما جاء فيه قوله:

هـذا كـتـاب أدب ومحـنـة ... وهـو الـذي يـدعى كليلة ودمنة
فـيـه دلالات وفـيـه رشـد ... وهـو كـتـاب وضـعـتـه الهـنـد
فـوصـفـوا آداب كـل عـالم ... حكـايـة عـلى ألسن البهـائم
فـالحـكـماء يـعـرفـون فـضـله ... والسـخـفـاء يشـتهـون هـزلـه
وهـو عـلى ذاك يـسـير الحـفظ ... لَـذٌّ على اللسـان عنـد اللفظ[25]

كما عمل قصيدة تناول فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وشيئاً من المنطق[26]، وأطلق عليها «ذات الحلل» ويرى البعض أنها لأبي العتاهية والصحيح أنها لأبان وقيل له يوماً: ألا تعمل شعراً في الزهد؟ فعمل مطولة مزدوجة في الصيام والزكاة استهلها بقوله:

قـصـيـدة الـصـيـام والـزكـاة ... نـقـل أبـان مـن فـم الـرواة
هـذا كتـاب الصـوم وهـو جـامـع ... لـكـل مـا قـامت بـه الشرائـع
مـن ذلـك الْمُنْـزَل في الـقـرآن ... فضـلاً على مـا كـان ذا بيـان
ومـنـه مـا جـاء عـن الـنـبـيّ ... مـن عـهـده المـتّبـع المـرضيّ[27]

... الخ.. وقد بلغ عدد ما جاء في كتاب الأوراق من أبيات هذه القصيدة ثمانية وعشرين بيتاً، ويبدو أنها أكثر من ذلك، قال الصولي: «وهي طويلة جداً».

وعمل - فضلاً على ذلك - ليحيى البرمكي كتاب المنطق بشعر وأدب ابن المقفع[29].

---

(24) المصدر نفسه ص 2.
(25) المصدر نفسه ص 46 وما بعدها.
(26) من المصدر نفسه.
(27) ص 51 المصدر السابق.
(28) ص 52 المصدر نفسه.
(29) ص 38 المصدر نفسه.

وإلى جانب التأثر والتأثير بين الأدبين العربي والهندي في كل ما أسفلناه من القضايا، فإن الشعر، العربي نقل بأسلوبه الخاص بعض النظريات الأخرى عند الهند مسجلاً إياها في الأدب العربي مما منحها الشهرة والبقاء، من ذلك إشارة أبي نواس إلى مفهوم علم الطبائع عند الهند إذ قال يهجو رجلاً اسمه زهير:

قل لزهير إذا حدا وشدا أقلل وأكثر فأنت مهذار
سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلج بارد حار

قال ابن قتيبة: وهذا الشعر يدل على نظره في علم الطبائع، لأن الهند تزعم أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً مؤذياً..[30].

كما صورنا أبو نواس أيضاً نظرة الهند إلى أصل الفلك والنجوم حيث شبه به عتاقة الخمر في دنانها فقال:

تخيرت والنجوم وُقّفٌ لم يتمكن بها المدار

وعلق ابن قتيبة على هذا البيت فقال: يريد أن الخمرة تخيرت حين خلق الله الفلك، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة في البرج ثم سيرها من هناك. وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع في ذلك البرج الذي ابتدأها فيه، وإذا عادت إليه قامت القيامة وبطل العالم، والهند تقول: إنها في زمان نوح اجتمعت في «برج» الحوت إلا يسيراً منها، فهلك الخلق بالطوفان، وبقي منهم بقدر ما بقي منها خارجاً عن الحوت[31].

ويؤكد ابن قتيبة أن هذا الشاعر قد نظر فعلاً في علم الفلك ونظرياته لدى الهند وترجمها إلى الأدب كما ترجم غيرها فيقول: «ولم أذكر هذا لأنه عندي صحيح، بل أردت به التنبيه على معنى البيت، ونظر هذا الشاعر في هذا الفن»[32] وأقول: لولا أن الأدب العربي حمل لواء تلك النظريات على لسان أبي الحسن هذا لما علمه الناس في عالمنا بمثل تلك الفنون وما فيها من الأفكار

(30) الشعر والشعراء ص 686 جـ 2.
(31) ص 683 المصدر السابق والجزء نفسه.
(32) الصفحة نفسها.

والعقائد لدى تلك الأمة وغيرها.

والشطرنج مثلاً وهو لعبة عالمية شهيرة في العصر الحاضر من ابتكار الهند، ولها فيه طرق كثيرة من اللعب به، فصلها البيروني في كتابه السابق[33]، وقد أخذه عنهم العرب قديماً، كما أخذته فارس، وانتشر اللعب به بينهم حتى اشتهر أناس به فنسبوا إليه، أمثال: أبي حفص الشطرنجي، والصولي الشطرنجي، وأبي القاسم التوزي الشطرنجي وغيرهم، ولتعلق الناس بهذه اللعبة الفكرية والسياسية الممتعة فبخاصة الكبراء وأصحاب الرتب والمفكرون منهم إذ ذاك، تناولها الشعراء والكتاب في أشعارهم، وكتاباتهم، بالوصف والإطراء حتى تكون حول الشطرنج أدب كثير جليل القدر، منه الفارس ومنه العربي، فالشاعر الفردوسي وهو فارسي أنشأ فيه أشعاراً جميلة رائقة، وللعرب فيه منظومات شعرية وصفت بالجودة وبراعة التصوير، وحسن التشبيه، نأخذ منها على سبيل المثال بعض ما جاء على لسان ابن الرومي يصف فيه أبا القاسم التوزي بالمهارة، والتفوق على أقرانه، فيقول:

تهزم الجمع أو حديا وتلـ ـوى بالصناديد أيما إلواء
ربما هالني وحير عقلي أخذك اللاعبين بالبأساء
واحتراس الدهاة منك واعصا فك بالأقوياء والضعفاء
عن تدابيرك اللطاف اللواتي هنّ أخفى من مستسر الهباء
فأخال الذي قد يسر على القو م حروبا دوائر الأرحاء
وأظنّ اغتراسك القرن فالقر ن منايا وشيكة الإرداء
غلط الناس لست تلعب بالشطـ ـرنج لكن بأنفس اللعباء
تقرأ الدست ظاهر فتؤديـ ـه جميعاً كأحفظ القراء[34]

ولم يقتصر أثر الالتقاء بين الأدبين العربي والهندي على المنظوم فحسب وإنما تجاوزه إلى المنثور كذلك، قال الجاحظ: وأما الهند فإن لهم معاني مدونة وكتباً مجلدة لا تضاف إلى رجل معروف، ولا إلى عالم موصوف فهي كتب متوارثة،

(33) انظر ص 276 وما بعدها.
(34) ضحى الإسلام جـ 1 ص 251 احمد أمين.

وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة[35].

من ذلك فإن العرب أغرموا بالقصص الهندي لما فيه من الطرافة والمتعة الأدبية مثل الحكايات التي تضمنها كتاب «كليلة ودمنة» وهو هندي الأصل، وقصة السندباد الصغير. والسندباد الكبير. ومما جاء في كتاب الفهرست لابن النديم[36]. عدا ما تقدم ذكره قصة.. هابيل في الحكمة.. وقصة هبوط آدم.. وكتاب بيدبا في الحكمة. ومن هذه القصص ما في كتاب «ألف ليلة وليلة» من القصص التي أثبتت الدراسات أن أصلها هندي، وهناك قصص صغيرة مختلفة منثورة في بطون الأدب والأخبار. ككتاب «الوزراء والكتاب» للجهشياري» وكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة[37] والبيان والتبيين للجاحظ وغيرها. مما عزى إلى الأدب الهندي، ثم نقلت إلى الأدب العربي، وبني عليها كثير من القصص والروايات فيه تمثل أدباً ممزوجاً من كليهما يدل على التأثر والتأثير بين الأدبين. وهكذا نلاحظ مما مر بنا في هذه الدراسة أن الأدب العربي ولغته قد أفاد من تلك الصلات المختلفة بينهما وبين جملة من آداب الشرق عن طريق الترجمة والنقل فوائد جمة، وهي متنوعة ومختلفة من ذلك ما نقل إلى الأدب العربي من القصص والحكم والأمثال الشرقية، والحكايات الأدبية والأساطير والخرافات، وبعض النظريات الفنية والأدبية في البلاغة والشعر والخطابة، إلى جانب المعاني الجديدة والأساليب الفنية والأدبية في البلاغة والشعر والخطابة، إلى جانب المعاني الجديدة والأساليب الفنية، والمصطلحات العلمية والأدبية، وكثرة التعريب والتوليد، من مفردات اللغة وتراكيبها، ومن المؤكد أن الشعراء والأدباء قد تأثروا بكل ما نقل إليهم من الآداب والفنون وغيرهما فجاءت في أشعارهم ورسائلهم ضروب وألوان جديدة أو مجددة من أساليب الشعر وطرق البيان، كما اصطبغ شعراً ونثراً بالصبغة العقلية فكراً وأسلوباً في كثير من الأحيان، وكان فن الموسيقى من ضمن الفنون التي ازدادت معرفة العرب بها، أبان اختلاط الأدب العربي بغيره من الآداب الأخرى، فكان اختراع بعض آلاته كما ابتكرت بعض الأصوات الغنائية

(35) البيان والتبيين ص 88/89 جـ 1.

(36) ص 424.

(37) انظر جـ 1 ص 19، 20، 22، 25، 27، 30، 45 وفي جـ 2 ص 7، 22، 121، 143، وفي جـ 243 وغيرها.

الجميلة، يؤكد هذا ما جاء في كتاب الأغاني وغيره.

وإن الدارس لتلك الثقافات السابقة الذكر التي وفدت على اللغة العربية وآدابها، ثم امتزجت بها وذابت في النهاية فيها يلاحظ أن هناك فروقاً جوهرية بين ثقافة اليونان وبين ثقافة الفرس، وبينهما وبين الثقافة الهندية، وقد ظهرت آثارها في المحيط العربي والإسلامي أبان دولة بني العباس، وفي عصر النهضة العلمية والأدبية بوجه خاص فقد عرف عن العقل اليوناني الميل العلمي، فكان من نتائجه عند العرب الإقبال على التصنيف والبحث العلمي المنظم، والتفكير الفلسفي والمنطقي وفق منهج مدروس.

واشتهر الفكر الهندي بالتأمل والميل إلى الهدوء والعزلة، وارتباط ذلك بالعاطفة والوجدان، وكان من نتائجه في المحيط العربي ظهور الزهد والتصوف بين فنون العلوم والآداب، والتأليف في الحكمة والقصص الديني الواعظ.

أما الفكر الفارسي فقد وصف بأنه الوعاء لكل ما سبقه من المعارف والآداب القديمة فهو إذاً مزيج من عناصر مختلفة من الثقافات. ومن هنا كان أثره في الثقافة العربية أشمل، وإن تمثلت فيه السطحية، وقد اشتهر هذا الأخير بالميل إلى الزخرفة المادية وصناعة الأساليب. والاهتمام بالبيان، والتوسع في مجال الفنون الجميلة كالغناء، والموسيقى والتصوير والنحت، وخصوبة الخيال.

المراجع

(1) البيان والتبيين (للجاحظ).
(2) أخبار الحكماء (للقفطي).
(3) تاريخ الشعر (للبهبتي).
(4) ديوان البحتري (تحقيق الصيرفي).
(5) الشعر والشعراء (لابن قتيبة).
(6) تحقيق ما للهند من مقولة (للبيروني).
(7) عيون الأخبار (لابن قتيبة).
(8) الفهرست (لابن النديم).
(9) صبح الأعشى (للقشلندي).
(10) ضحى الإسلام جـ 1 (لأحمد أمين).
(11) كتاب «الأوراق» (للصولي).